**المحاضرة الثالثة:**

**تمهيد:**

**يمثل النصف الثاني من القرن التاسع عشر نقطة تحول كبيرة في تاريخ الأمة العربية وبالأخص تاريخ المشرق العربي ففي هذه المرحلة تهيأت الأجواء للتفاعل الحضاري كما تهيأت الأجواء للنفوذ الاستعماري الذي جثم خاصة على مصر وفي خضم هذه الاجواء ظهرت التيارات السياسية والفكرية كاستجابة طبيعية لهذه التحولات والسؤال الذي يطرح نفسه هنا وخاصة بالنسبة الى الجانب الفكري ماهي هذه التيار الفكرية الّتي ظهرت ؟ ومن هم اعلامها ؟ وماهي توجهاتهم الفكرية ؟ ومانصيبها من التأثير في ذلك الواقع؟**

**يمكن في هذا الشأن الاشارة الى اتجاهات قد تميزت في هذه المرحلة وكان لها مابعدها الإتجاه الاول هو اتجاه الاحياء الاسلامي والاتجاه الثاني هو اتجاه تيار التمدن الاروبي والاتجاه الثالث هو اتجاه التوفيق وهذه التيارات تبدو اكثر بروزا في الساحة المصرية (رفعت سيد احمد ، التيارات الفكرية في مصر في نهاية القرن التاسع عشر، مجلة الهلال ع1991 ) بحكم أنها قد بدات نهضتها مبكرا ولكن واقع هذا التباين ينسحب ايضا على مناطق اخرى كمنطقة الشام ()وتونس في المغرب العربي()**

**ـ تيار الاحياء الاسلامي:**

**يعد هذا التيار من ابرز التيارات بالمقارنة مع غيره وذلك بالنظر الى المرجعية الدينية التي يقوم عليها وهذا التيار من حيث الوجود هو تيار عريض وواسع كما يقول الدكتور محمد عمارة فهو يضم فيما يضم شخصيات متمايزة ان في ميادين اهتمامها او في حظها من التجديد او في مقاييس التجديد لديها ( محمد عمارة ازمة الفكر الاسلامي ص70) ولعل من الاسماء التي يمكن ذكرها هنا كدلالة على هذا التيار اسم رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد رشيد رضا وعلي مبارك ( المرجع نفسه ص70،71)وبغض النظر عن اختلاف الرؤى والمواقف في هذا التيار فإنه يشترك في جملة مبادئ يمكن تحديدها في الآتي:**

**ـ الانطلاق من مبادئ وقيم الاسلام كما تجلت من خلال القرآن والسنة**

**ـ استلهام الثقافة العربية والاسلامية وتبنيها كوجه انتماء حضاري**

**ـ مراعاة تغير الزمان والدعوة الى الافادة من التقدم الحضاري للآخرين( المرجع نفسه، ص71،72)**

**ـ الاقرار بالإجتهاد والتجديد في الميدان الديني()**

**وفي الجملة فإن هذا التيار قدد امتاز بخصوصيات حددها الدكتور محمد عمارة في الآتي:**

**ـ الدعوة الى التجديد في اطار التواصل مع التراث وعدم القطيعة معه إلا ماكان متخلفا منه.**

**ـ الدعوة الى التقدم الحضاري في اطار التمييز بين المشترك الانساني العام وبين الخصوصيات.**

**ـ الالتفات الى الواقع وعدم اهماله بالرجوع الى الماضي كما هو حال انصار الموروث.**

**ـ الوقوف موقف الوسط ببين دعاة الموروث ودعاة التغريب في النظر الى الواقع (محمد عمارة ازمة الفكر الاسلامي ص72، 73).**

**على انه اذا كان هذا التيار تيارا واسعا كما قيل فإن تمثيله بشكل بارز يمكن الوقوف عليه من خلال فكر بعض الاعلام وبالتحديد اعلام من ينتمون الى مايسمى تيار الجامعة الاسلامية تيار جمال الدين الافغاني و محمد عبده والكواكبي (محمد عمارة ، تيارات اسلامية، ص291-294 ) وحتى يكون من الممكن التعرف على هذا التيار من المهم الوقوف اولا عند فكرة الجامعة الاسلامية**

**-فكرة الجامعة الاسلامية:**

**ترتبط هذه الفكرة تاريخيا بوضع كان يعيشه العالم العربي والاسلامي وبالاخص الدولة العثمانية فهي في هذا السياق رد فعل ضد التمزق الداخلي والنزوع الاستعماري الذي كان يهدد الدولة العثمانية وولاياتها وهذه الفكرة في الاصل لها جانبان جانب سياسي وجانب فكري فمن حيث الجانب الأول فهذه الفكرة قد اشتهر بها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي سعى الى دفع الاخطار عن العالم الاسلامي من خلال مبدأي التضامن والوحدة، فما يشهد له في هذا الشان انه ارسل بعثات ورسل الى انحاء العالم الاسلامي من اجل تمتين الاواصر والتصدي للتهديد الاروبي االمتربص ومن حيث الجانب الفكري فهذه الفكرة قد كانت في الواقع مدار انشغال (عبد الرؤوف سنو، مجلة الاجتهاد فكرة الجامعة الاسلامية ص320،321) الكثير من النخب والاتجاهات فهي فكرة مثلا قد دعت اليها في المنطقة العربية الوهابية والسنوسية ولكنها كانت اكثر تألقا ونضجا عند اتجاه جمال الدين الافغاني وزميله محمد عبده ومن ناصرههم** /

**وتعتبر هذه المرحلة مرحلة الاصلاح السياسي والاجتماعي التي قادها هؤلاء المفكرين وجعلوا من النهضة اللغوية بوابة لباقي الاصلاحات والتحولات التي تبدأ عبر النصوص الاصلية وهكذا افضت النهضة الى الاعتراف بالاخر المغاير وضرورة الانفتاح على منجزاته والاستفادة من اطروحاته، وهكذا صار الاخر شرطا ضروريا لحصول الوعي بالذات وللتوضيح اكثر نحاول في هذا المقام ابراز اهم الشخصيات الفكرية التي ساهمت في بلورة فكر حداثي يعبر فعلا عن تشكل الوعي العربي /**

**1/ رفاعة رافع الطهطاوي وتوجهه الليبرالي**

رفاعة رافع الطهطاوي (1801/ 1873) من عائلة قديمة توارثت العلوم الدينية، وأقامت في مدينة طهطا في مصر العليا ، التحق بالأزهر للدراسة وتأثر هناك بالأستاذ ( الشيخ حسن العطار )أحد علماء العصر الكبار ، كان فضل أستاذه هذا عليه أعظم وأوسع مدى فهو الذي سعى بتعيينه اماما لفرقة من فرق الجيش المصري الجديد ثم اماما لاول بعتة رئيسية أرسلها محمد على باشا للدراسة في باريس ولقد كان تأثير باريس فيه أبلغ تأثير ، ومع أنه جاءها كإمام لا كطالب فإنه قد ألقى بنفسه في خضم الدراسة ، فإكتسب معرفة دقيقة وقد تعرف على شيئ من الفكر الفرنسي في القرن (18) بإطلاعه على ( فولتير ، كوندياك، روسو ....)

يعد الطهطاوي من مؤسسي التيار الليبرالي في الفكرالعربي رغم أنه تلقى تكوينا دينيا في بداية حياته حيث درس في جامع الازهر وتمكن من العلوم النقلية لكنه كان غير راض على المناهج المعتمدة في التدريس التي تعتمد على تلقين معارف جاهزة وقد إكتشف كما قلنا سالفا أستاذه العطار تميزه وقدرته على التحليل العقلاني للأمور

إستطاع الطهطاوي إتقان اللغة الفرنسية في غضون مدة قصيرة وتعلم الهندسة والطب والرياضيات وإطلع على عديد الروايات المسرحية فقد أراد أن يكون نظرة شاملة عن مكونات الثقافة الفرنسية هناك، فإتجه لقراءة الفلسفة وهنا بدأ وعيه يتشكل تدريجيا، لكن كان هذا التشكل نقدي، حيث تأثر بكتب ومؤلفات مونتسكيو إذ يعد هذا الأخير من قام بالتنظير للدولة الحديثة من خلال حديثه عن الحقوق الطبيعية والمدنية والسياسية، هذه القيم التي وجدها عند مونتسكيو كانت مجهولة لدى الطهطاوي ومفقودة بمصر وهنا دخل في نوع من المقارنة بين الثقافة السائدة التي تركها بمصر وحالة الرقي والحضارة التي وصلت اليها فرنسا .

لقد رأى الطهطاوي مدى التقدم الذي يعيشه الأوربيون في كافة المجالات، ومن هنا فقد أخذ على عاتقه البحث في الأسباب التي أسهمت في تقدم أوربا سواء كانت هذه الأسباب هي العلم والتقدم التكنولوجي أو سيادة أشكال الحكم التي تقوم على الحرية والعدل .

لقد دعى حسن العطار تلميذه وهو طالب في الأزهر وحبب إليه الأدب والقراءة في مختلف الفنون وتحدث إليه في شؤون الوطن وفيما آل إليه الإسلام فأخرجه من نطاق التقليد إلى فريق المجددين ، وقد تتلمذ في فرنسا أيضا على علماء أفذاذ أمثال ( جومار) و قد ترجم قبل عودته إلى مصر اكثر من ( 12) نصا فرنسيا ما بين رسالة ومقالة وكتاب كما الف كتابه الفذ ( تخليص الإبريز من تلخيص باريس ) في صورة بحث إجتاز به الإمتحان النهائي وهو الكتاب الذي اراد به كما يقول اساتذته أنه (( يوقظ أهل الإسلام ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجي ))

إن من أهم الأمور التي نالت إعجاب الطهطاوي في زيارته لفرنسا هو ظاهرة المسارح ومكانة المرأة في المجتمع الفرنسي، وفي أثناء تواجد الطهطاوي بفرنسا كان محمد على باشا يتابع اخباره من خلال التقارير التي كانت تصله حول شخصية الطهطاوي المتميزة ولما عاد الطهطاوي لمسقط رأسه إنبهر للمرة الثانية، ولكن هذه المرة نتيجة التخلف السائد في المجتمعات العربية وبدأ الطهطاوي في وضع أسس مشروعه النهضوي منطلقا من سؤاله التالي كيف يمكن توظيف قيم حضارة لا دين لها ؟ أو قيم حضارة إستبعدت الدين من السلطة السياسية ؟

لما عاد الطهطاوي عمل في جملة من المدارس فتنبه الى ان الحضارة الغربية جمعت بين البعد العملي والتنظيري، فرأى أنه لا يكفي طرح جملة من الأفكار النظرية لإحداث التغيير، فقام بتأسيس بعض المدارس التي ساهمت بدورها في خلق ديناميكية فكرية متميزة كانت سببا في تشكيل الوعي العربي بضرورة القيام باصلاحات ثورية للاوضاع.

ولقد عين الطهطاوي رئيسا لمدرسة اللغات وكلف بإعداد الطلاب لدخول المدارس المهنية ولكن عمله المهم كان في الترجمة وقد إستطاع أن يضع حوالي 20 ترجمة معظمها لكتب التاريخ والعسكرية ومنها كتاب عن الفلاسفة الإغريق وكتاب تأملات في أسباب عظمة الرومان وإنحطاطهم لمونتسكيو.

لم تكن هذه الأفكار بالنسبة للطهطاوي مجرد أفكار نظرية بل رأى أنه يجب على أمته الإنتفاع بها، ولقد إستطاع الطهطاوي أن يقوم بمشاهدات دقيقة للعالم الحديث، وقد نشر كتاب مهم ( تخليص الإبريز من تلخيص باريس ) وقد ترجم إلى التركية ، وفي ظل الجهود المتنامية للطهطاوي يمكن القول بأن عمره الفكري حمل إلينا ملامح شخصية فكرية مثلت إحدى الركائز الأساسية لنهضة العالم العربي والإسلامي في الجوانب الفكرية والثقافية، والواقع أن أي قراءة لجهود الطهطاوي الفكرية لا يمكن أن تتحقق إلا في ضوء القراءة الفكرية الواعية التي لا يمكن إغفال سيادة القوالب اللغوية التقليدية في مؤلفاته فهو حين ينقل إلينا مصطلحات الفكر السياسي الغربي يوظف في ذلك لغة السياسة الشرعية فهو يرادف بين الشعب و الرعية وبين القانون والشريعة، وكثيرا ما نجد المصطلحات الفقهية التقليدية زاخرة في مؤلفاته مثل المباح/ المحظور، الكفر/الإيمان، ولا شك أن هذه اللغة ترجع إلى التعليم الديني الذي تعلمه الطهطاوي في الأزهر .

**أسس الحداثة عند الطهطاوي** / الطهطاوي حين يصيغ إعجابه بقيم الحرية تجده يتمسك بالتقليد موظفا منهجية القياس والمماثلة، أي المماثلة بين الحرية عندهم والعدل والإنصاف عندنا، فيرى (أن ما يسمونه عندهم الحرية، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف) .

**العدل والمساواة/** من المفاهيم المتداولة في خطاب الطهطاوي الفكري مفهوم العدل وقد ماثل الطهطاوي بينه وبين الحرية، ويماثل أيضا بين العدل في الدستور الفرنسي والعدل في الشريعة الاسلامية، وهذا العدل هو سبب عمار المدن والبلاد، ويرى بالمقابل كيف ان الشريعة الإسلامية هي معيار المملكة والسياسة لأن الحكم بهذا معناه الفوز بسلامة الدنيا والآخرة، وينتهي الطهطاوي إلى الإعلاء من قيمة الشريعة الإسلامية على أي قانون وضعي ،ويرى أن تحقيق العدل لا يحدث إلا بمعرفة الحاكم للشريعة .

واذا كان الطهطاوي يدعوا في خطابه الفكري إلى قيم العدالة والمساواة فإننا نجده من ناحية أخرى يكرس في خطابه التصور الشرقي عن الحاكم ( المستبد العادل) فيطالب الملك في حالات العفو والعقاب ألا يتجاوز في ذلك الحد حفظا لناموس الشريعة وصونا لحدود الله ويتحدث الطهطاوي عن المساواة بلغة شرعية فيرى ان التسوية في الحقوق ليست الا عبارة عن تمكن الانسان شرعا من فعل او نيل او وضع جميع ما يمكن لسواه من اخوانه ان يفعله شرعا ،ومن المعلوم ان استواء الانسان في حقوقه شرعا يستلزم استوائه مع غيره في الواجبات التي تجب للناس بعضهم على بعض لان التسوية في الحقوق ملازمة للتسوية في الواجبات .

**المواطنة** / نجد الطهطاوي يتكلم عن المواطنة بانها تعني ثمة حقوق وواجبات متبادلة بين الانسان ووطنه فحين يقال وطنى فمعنى ذلك ان الانسان يتمتع بحقوق بلده واعظم هذه الحقوق الحرية التامة فالطهطاوي يرى ان المواطنة تستلزم على المواطن ان يؤدي واجباته تجاه وطنه وبناء عليه يحصل على حقوقه كمواطن اما اذا لم يؤدي ماعليه تجاه وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها ومن ثمة فعلى المواطنين الذين يجمعهم وطن واحد التعامل على تحسين هذا الوطن وتحسين المنافع العمومية .

الحرية / لقد تاثر الطهطاوي باجواء الروح الليبرالية التي عاشها في فرنسا وتاثر بحديثهم عن الليبرالية من خلال قراءته لافكار مونتسكيو وروسو وفولتير ...الخ ولكن رغم هذا التاثير فقد حاول ان يصيغهفي قوالب لغوية تقليدية تقع ضمن القوالب اللغوية في علم اصول الفقه والسياسة الشرعية الاسلامية / فحقوق اهالي المملكة المتمدنة ترجع الى الحرية ويتصف كل فرد من افراد الهيئة الاجتماعية بانه حر يباح له ان ينتقل من دار الى دار وان يتصرف في وقته ونفسه كما يشاء فلا يمنعه من ذلك الا المانع المحدد بالشرع او السياسة.وكان الطهطاوي الى حد ما معجبا بحرية الاعتقاد السائدة في اوربا فراى ان من الاشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساويين ان كل انسان يتبع دينه الذي يختاره ويكون تحت حماية الدولة . وقد اعجب كثيرا بالدستور الفرنسي حيث يرى ان اهم ما يتميز به هذا الدستور هو تحديده لواجبات وحقوق كل من الحاكم والمحكوم وتاكيده على اهمية تقييد سلطة الحاكم فهو غير مطلق التصرف

لقد قبل الطهطاوي بسلطة الحاكم ولكنه الح ايضا على الحد الذي تضعه له القواعد الخلقية ولكي يشرح الفكرة القائلة بان الشريعة فوق الحاكم يلجأ الى تفريق ( مونتسكيو) بين السلطات الثلاث / ومما لاشك فيه ان ما شاهده في فرنسا قد عزز لديه فكرة فرض القيود على سلطة الحاكم غير ان في كتابه ( مناهج الالباب) يستمد البرهان على وجوب الحد من ممارسة السلطة من الفكرة التقليدية القائلة بانقسام المجتمع الى مراتب او طبقات لكل منها وظيفة معينة فهو يميز بين اربع طبقات ( الحاكم / رجال الدين/ الجنود/ اهل الاقتصاد) وهو يعير اهمية خاصة للطبقة الثانية ولدورها في الدولة .